﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٥﴾ [الجاثية: 34 - 35]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُمَا:

تأييس المستهزئين بآيات الله من العفو والمغفرة عذاب فوق العذاب

لمّا أودعوا جهنَّم، وأحاطت بهم؛ نودوا ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ الآيةَ؛ تأييسًا لهم من العفو عنهم[1]، ولمّا ذكر جزاءَهم على ما هو مطابق لأعمالِهم؛ علَّله بما لزم من أعمالِهم، فقال: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: النَّصر يدلُّ في أصلِه على إتيان خيرٍ وإيتائِه، فهو بمعنى العون[3]، أو يقال: يدور لفظ النَّصر على الإمداد بما فيه زيادةٌ مناسبةٌ وقوَّة[4]، ونَصرَ اللهُ المُسلِمينَ نصرًا: آتاهُمُ الظَّفرَ عَلى عَدوِّهِم، وأعانَهم عليهم، ونُصِرَ القومُ؛ إذا أُغيثوا[5]، وأُعينوا، وهم بحاجةٍ إلى الإغاثة، والتَّناصر: التَّعاون الَّذي يترتَّب عليه الغلبة، والنَّصر العطاء؛ ولِذلِكَ يُسَمَّى المَطَرُ نَصْرًا؛ لأنَّه نصرة الأرض، والانتِصارُ والاستِنصارُ: طلب النُّصْرَة، واستُعمِل النَّصر بمعنى الإنقاذ أو الخلوص من العذاب؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 374.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 113.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (نصر).

لأنَّه بمعنى العون، و﴿نَّصِرِينَ﴾ في الآية بمعنى منقذين[1]، أي: وما لكم من منقذين يخرجونكم من العذاب.

2) ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾: أصل كلمة (أخذ) يدلُّ على حوزِ الشَّيء وتحصيله وجمعِه على جهة القبض عليه بقوَّة ماديًّا أو معنويًّا، بحيث يكون في المتناول، ولهذا قيل للأسير: (أخيذ)[2]، وأخَذَه بذَنْبه وآخذَه: عاقبه[3]، أصلها: ضبطه، أو تمكَّنَ منه، فعاقبه، ويقال: أخَذْتُ الشَّيءَ آخُذُهُ أخْذًا، والأخذ خِلافُ العَطاءِ، والاتِّخاذ افتعال من الأخذ، بمعنى أخذ لنفسِه[4]، ففيه معنى القوَّة في التَّحصيل والتَّمسُّك بالمأخوذ وعدم النَّزع منه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾.

3) ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾: أصل الغرِّ يدلُّ على الأثر الظّاهر من الشَّيء، ومنه غُرَّةُ الفرس الَّتي تكون في جبينِه، وغَرُّ الثَّوب: أثر كسره وطيِّه، وغرَّه غرورًا كأنَّما طوى يقظتَهُ، وأبقاه في الغفلة[5]، أو يقال: أصل الغرِّ يدلُّ على النُّقصان، ومنه: غارَّتِ النّاقَةُ تُغارُّ غِرارًا؛ إذا نَقَصَ لَبَنُها، والغِرارُ في الصَّلاة ألّا يُتِمَّ رُكوعَها أو سُجودَها، ومِنهُ الغِرارُ: النَّومُ القَليلُ[6]، ومن النُّقصان غرَّه غرورًا، أي: خدعه؛ لأنَّ فيه نقصان اليقظة، والغِرار الغفلة[7]، والتَّغريرُ: الإطماعُ الباطِلُ[8]، و(غَرَّتْكُمُ) في الآية بمعنى: خدعتكم[9].

4) ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أصل عتب يدلُّ على الأمرِ الَّذي فيه بعض الصُّعوبة من كلام أوغيره، ومِن ذَلِكَ العَتَبَةُ، وهِيَ أُسْكُفَّةُ البابِ، وإنَّما سُمِّيَت بِذَلِكَ؛ لارتفاعِها عَنِ المَكانِ المُطمَئِنِّ السَّهْلِ، وأعتبه بزيادة همزة السَّلب: أزال عَتْبَهُ عنه، ورجع عما يُغْضِبُ العاتب بإرضائه[10]، والاستِعتابُ: طَلَبُ العتابِ؛ وذلك ليُزِيلَ العاتبُ من نفسه الغضبَ عَلى خَصْمِهِ، كما يأتي

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 109.
(2) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (أخذ).
(4) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).
(5) الرّاغب، المفردات: (غرر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غر).
(7) الرّاغب، المفردات والفيومي، المصباح المنير: (غرر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.
(9) الفيومي، المصباح المنير: (غرر).
(10) الراغب، المفردات: (عتب).

استَعتبَ بمعنى أعتب، أي: أزال عُتْباه، أي: غضبه[1]، و﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ في الآية بمعنى: لا يُعتبون، أي: لا يُرضَون بما يَسألون، ولا يُزال غضبُهم، أو بمعنى: لا يُطلَبُ منهم أن يُزيلوا غَضَبَ رَبِّهم، ويَرجِعوا إلى ما يُرضِيه؛ لأنَّه لا يُقبَل ذلك اليوم عذرٌ ولا توبةٌ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أوانُ التَّوبة والاعتذار يفوت يوم القيامة

يخبر الله تعالى عمّا يُقال للكافرين يوم القيامة؛ تأييسًا لهم من العفو عنهم، فيقول: وقيل للكافرين: اليومَ نَتْرُكُكُم في النّارِ، كَما تَرَكْتُمُ الإيمانَ والعَمَلَ لِلقاءِ هَذا اليَومِ، ومستقرُّكم الَّذي تأوون إليه هو نار جهنَّم، وما لكم من ناصرين ينصرونكم ممَّن يعذِّبكم، ويخلِّصونكم من النّار، وهذا الَّذي حلَّ بكم من عذاب الله؛ بسبب أنَّكم اتَّخذتم آيات الله هزوًا وسخريَّةً تسخرون منها، وخدعتكم زينة الحياة الدُّنيا، فآثرتموها على العمل؛ لما ينجيكم اليوم من عذاب الله، ففي هذا اليوم لا يخرجون من النّار، ولا هم يردّون إلى الدُّنيا، فيُطلب منهم أن يرضوا ربَّهم بأن يرجعوا إلى طاعة الله؛ لفوات أوان التَّوبة والاعتذار[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

تقريعُ المستهزئين بآيات الله بالجمع بين رؤية ما يكرهونه وسماع ما لا يرجونه

الواو في قولِه: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ عاطفة لخبر على خبر؛ لاشتراكِهما في كونِهما جملتين فعليَّتين، وفي كونهما إخبارًا عمّا يقع للمستهزِئين يوم القيامة، بمعنى أنَّه لمّا أخبر عمّا يراه الكافرون المستهزئون يوم القيامة من بدوِّ سيّئاتِهم، الَّتي

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 9/ 56.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 374.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 87 - 88، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 101، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 110.

عملوها؛ عطف عليه ما يقال لهم؛ ليجمع عليهم تقريعهم برؤية ما يكرهونه وسماع ما لا يرجونه.

نكتةُ بناء فعل (قِيلَ) للمفعول:

كلُّ ما يُخاطَبُ به النّاس يوم القيامة حقٌّ؛ لأنَّه بأمرِ الله

بُنِيَ فِعْلُ (قِيلَ) للمفعول؛ حَطًّا لِلمستهزئين عَن رُتبَةِ أن يُصَرَّحَ باسم الله في حِكايَةِ الكَلامِ الَّذي واجَهَهُم بِهِ بِناءً عَلَى أنَّ ضَميرَ ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ ضَميرُ الجَلالَةِ، ولَيسَ مِن قَولِ المَلائِكَةِ، فَإن كانَ مِن قَولِ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ؛ يكون التَّعبير بصيغة المبني للمفعول (قِيلَ) لِلعلم بالفاعل[1]، وللاهتمام بالمقول، بمعنى: إلفات نظرهم إلى المقول؛ لأنَّه هو المقصود، وليس العلم بالقائل، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ كلَّ ما يُخاطَبُ به النّاس في ذلك اليوم حقٌّ؛ فليس من ضرورة للعلم بالقائل لهول الموقف أوَّلًا، ولأنَّ النّاسَ لا يُخاطَبون بشيءٍ يوم القيامةِ إلّا بأمر الله.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

خسارةُ المبطلين في نسيانهم يوم القيامة من ربِّ العالمين

(الـ) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ للعهد الصَّريح، أي: اليوم الحاضر الَّذي أنتم فيه، ويُقصَد به يوم تقوم السّاعة الَّذي يخسر فيه المبطلون، ففي التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ إشارة إلى اليوم المذكور في قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٢٧﴾ [الجاثية: 27]، أي: اليوم تظهر خسارة المبطلين، وتتحقَّق بتركِ الله تعالى لهم ونسيانِهم في العذاب، كما نسوا لقاء يومهم هذا، ولم يعدّوا العدَّة له.

نكتةُ تقديم الظَّرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ على عامله:

تعظيمُ شأنِ يوم القيامة وتفخيم ما يقع فيه من الجزاء

قُدِّمَ ظرف الزَّمان ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ على عاملِه ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾؛ للتَّنبيه إلى عظمة هذا اليوم لِهولِه ولشدَّة ما يقع فيه، ولأنَّه يوم الجزاء، كما أنَّ في التَّقديم تخصيصًا للعامل، بمعنى: اليوم الَّذي أنتم حاضرون فيه ننساكم، ونترككم في العذاب، وليس في أيِّ يوم آخر؛ لأنَّه يوم الجزاء.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 374.

نكتةُ إسناد الفعل للفاعل في قوله: ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾:

نسيانُ الكافرين في العذاب متحقَّق، وهو معلوم عند من يتركهم فيه

قد يقال: لماذا جاء فعل القول محذوف الفاعل، وفعل ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ مسندًا إلى الضَّمير بصيغة المبني للفاعل؟ والجواب هو أنَّ الضَّمير في ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ سواء أكان هو ضمير الجلالة، أو أن يكون راجعًا إلى الملائكة من خزنة جهنَّم، فإنَّ التَّصريح بالفاعل في الفعل ننساكم مع حذفه في ﴿وَقِيلَ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ نسيانهم في العذاب متحقَّقٌ، وأنَّه معلوم عند من ينساهم، ولو قيل: وقيل اليوم تنسَون؛ لكان ربَّما توهَّموا أن يخرجوا من العذاب، بأن يغفل عنهم من ينساهم لعدم علمِهم به وعدم تعيُّنه عندهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازي في فعل ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ و﴿نَسِيتُمۡ﴾:

من زرع في مزرعة الدُّنيا بذور النِّسيان؛ أثمر في الآخرة ثمرة النِّسيان

لمّا كان الكافرون لا يُنسَون يوم القيامة؛ لأنَّهم لو كانوا يُنسَونَ؛ لسلموا من العذاب، كما أنَّ النِّسيان في حقِّه تعالى محالٌ، كما أنَّ اقترانه باليوم يمنع حمله على الحقيقة؛ لاستحالة نسيان الأمر الحالي؛ إذ هو مرئيٌّ ومشاهد، وإنَّما يُنسي الغائب[1]، فلمّا كان الأمر كذلك؛ كان لفظ النِّسيان في قوله: ﴿نَنسَىٰكُمۡ﴾ و﴿نَسِيتُمۡ﴾ على المجاز، فإمّا أن يكون مجازًا مرسلًا بإطلاق النِّسيان على التَّرك المؤبَّد؛ لأنَّ النِّسيانَ يستلزم تَرْكَ الشَّيء في محلِّه أو تركِه على حالتِه الَّتي هو عليها، والمعنى: اليوم نترككم في النّار وفي العذاب، كما تركتم أنتم العمل لذلك اليوم والنَّظر فيه، وتركتم عدَّة لِقاءَ يَومِكُم هذا، وهي الإيمان والطّاعة، وإمّا أن يكون النِّسيان مستعارًا استعارةً تبعيَّة؛ للإهمالِ وعدم المبالاة، وأصله من تشبيه الشَّيء الَّذي لا قيمة له، فيطرح غير مبالًى به بالشَّيءِ المنسيِّ، فيكون نسيًّا منسيًّا، والمعنى: اليوم نجعلكم في النّار بمنزلة الشَّيء

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 16.

المنسيِّ غير المبالى به، لا يكترث إليكم، ولا يلتفت، ولا يعبأ بكم، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم، ولم تخطروه ببال، وكما صيَّرتم هذا اليوم كالشَّيء الَّذي يُطرح نسيًّا منسيًّا، لم تكترثوا إليه، ولم تعملوا له[1]، وعلى الوجهين فإنَّ في التَّعبير بالنِّسيان استهانةً بهم في موضع حاجتِهم واضطرارِهم، كما أنَّه سُمّيت العقوبة في هذه الآية، أي: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ باسم الذَّنب، أي: ﴿نَسِيتُمْ﴾، وجاءت على وفقِها مطابقة لها[2]، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ بعض المفسِّرين ذهبوا إلى أنَّ قولَه: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ واردٌ على المشاكلة[3]، وإن تقدَّم على صاحبه؛ بسبب تقديم المعلول على العلَّة، فيكون قد ذكر: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ - مع أنَّ النِّسيان في حقِّه تعالى محالٌ - لوقوعه في صحبة ﴿نَسِيتُمْ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ العقوبة على وفق الذَّنب، كما تقدَّم.

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾:

تعليقُ المضارع بالمشكوك في تحقُّقه يؤذن بتجدُّده أو تصويره حيًّا

عبَّر بصيغة المضارع في قوله: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾؛ للدَّلالة على استمرار تركِهم في النّار وبقائِهم فيها، أو للدَّلالة على استمرار عدم المبالاة بهم، وعدم الاكتراث بعذابِهم وبقائِهم في النّار، ويمكن أن يكون غرض التَّعبير بالفعل المضارع هو تصوير المشهد الفظيع، كأنَّه رأي عين أمام القارئ.

نوعُ الكاف ودلالتها في قوله: ﴿كَمَا﴾:

سببُ نسيان الكافرين في العذاب إعراضهم عن الإيمان والعمل الصّالح في الدُّنيا

الكافُ في: ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ للتَّعليلِ، كَما في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البَقَرَة: 198]، والتَّقدير فاليوم ننساكم لنسيانِكم لقاء يومكم هذا، أي: لإعراضِكُم عَنِ الإيمانِ بِهذا اليوم، وما يتبعه

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 234، والزّمخشري، الكشّاف: 4/ 293، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 90.

(3) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 14/ 262، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 446، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 128، و13/ 195.

من العدَّة والعمل[1]، ويمكن أن تكون الكاف للتَّشبيه، وذلك بتشبيه نسيانهم في ذلك اليوم بنسيانهم لقاء الله تعالى، فيكون جزاؤهم من نفس العمل الَّذي عملوه.

فائدةُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿نَسِيتُمْ﴾:

مَـنْ وقـع منه نسيان لقاء الله وقتًا ما وإن قلَّ؛ كـان عـلى خطر عظيمٍ

عبَّر بصيغة الماضي ﴿نَسِيتُمْ﴾؛ للإشعار بأنَّ عقابَهم بسبب تحقُّق نسيانِهم، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ مَن وقع منه نسيان لقاء الله وقتًا ما وإن قلَّ؛ كان على خطر عظيمٍ بتعريضِ نفسه لاستمرار الإعراض عنه وعدم المبالاة به[2].

سببُ إيثارِ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح:

لـقـاءُ الـلـهِ لا يُنسى، ولا يغيب عن القلب

لم يقل: فاليوم ننساكم كنسيانِكم لقاء يومكم هذا، بل عبَّر بالمصدر المؤوَّل، فقال: ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، والسَّبب هو الإخبار عن أنَّ سبب نسيان الله تعالى لهم هو مجرَّد معنى الحدث، أي: مجرَّد نسيانهم لقاء الله تعالى دون احتمال معنى زائد عليه أو وصف مقيَّد له بأن كان لسبب ما أو كان نسيانًا قليلًا أو كثيرًا؛ ليفيد قطعَ حجَّتهم؛ لأنَّ لقاء الله لا يُنسى، فهو يقين في القلب، ففي التَّعبير بالمصدر المؤوَّل تحصين للمعنى من الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال[3].

بديع الجناس في ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ و﴿نَسِيتُمْ﴾:

مـن نـسي لقاء الـلـه تـعـالى؛ تركه، ولم يبالِ به يوم القيامة

جاء الفعلان ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ و﴿نَسِيتُمْ﴾ على طريق جناس الاشتقاق؛ للإشعار بأنَّ الجزاء من جنس العمل، فقد تركهم الله تعالى، ولم يبالِ بهم يوم القيامة؛ لتركِهم الإيمان به تعالى وبيوم البعثِ وتركِهم إعداد العدَّة له.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 113.
(3) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: 1/ 93.

نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿لِقَآءَ﴾:

الكافرون يلقون يوم القيامة ما وُعـدوا بـه في الدُّنيا بالحسِّ وبالـبـصـر وبالبصيرة

لمّا كان اللِّقاء هو مقابلة الشَّيء ومصادفته معًا عن قربٍ[1]؛ عبَّر باللِّقاء في قولِه: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾؛ للإشعار بمقابلتِهم للأحداث الَّتي تقع يوم القيامة ومصادفتِهم لها، وهم متحقِّقون منها، وناسون لها نسيان تكذيب وتحقير، كما أنَّ في التَّعبير باللِّقاء إشارة إلى لقائِهم ذلك اليوم، وما فيه من أهوال بالحسِّ وبالبصرِ وبالبصيرة[2]، وإلى أنَّهم يلاقون ذلك اليوم، وهو لاقيهم، فإنَّ ما تستقبله أنت؛ فهو أيضًا يستقبلك.

بلاغةُ إضافةِ المصدر إلى ظرف الزَّمان:

مَـن نَـسِيَ لقاءَ الـيـومِ نـسيَ لقاء الكائن فيه بطريق الأولى

أُضيف اللِّقاء إلى اليوم في قولِه: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾، وهو من إضافة المصدر إلى ظرف الزِّمان على التَّوسُّع في الظَّرف، بإقامتِه مقام المفعول به؛ إذ أضاف إليه ما هو واقع فيه[3]، فتكون الإضافة بطريق المجاز الحكمي، وذلك للإيجاز؛ وإنَّما لم تكن الإضافة إلى المفعول على الحقيقة؛ لأنَّ التَّوبيخ ليس على نسيان لقاء اليوم نفسه، بل نسيان لقاء ما فيه من الجزاء[4]، فالمراد من نسيان لقاء اليوم نسيان لقاء جميع ما فيه، وهو الأنسب بالمقام؛ لأنَّ السّياق في إنكار البعث[5]؛ ليشمل الكلامُ توبيخَهم على كلِّ ما يلقونه في ذلك اليوم، بمعنى أنَّ ذلك اليوم قد حوى كلَّ ما يلقونه، وأهمُّ ما فيه الجزاء على تركِهم الإيمان وطاعة الله تعالى، وإنَّما عبَّر بطريق المجاز؛ لتهويل اليوم، وليكون أعمَّ في التَّوبيخ والتَّقريع، فإنَّ مَن نَسِيَ لقاءَ اليومِ؛ نَسِيَ لقاءَ الكائنِ فيه بطريق الأولى[6]، فالإضافة هنا مثل إضافة

(1) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقي).
(2) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 375.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 23، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 159.
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 23.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 112.

المكر في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: 33][1]، ويحتمل أن تكون الإضافة على مجاز الحذف بتقدير مفعول محذوف، أي: كما نسيتم لقاء الله في يومكم هذا[2]، وعلى كلِّ تقديرٍ؛ فإنَّ إضافةَ المصدر إلى الظَّرف فيها من الرَّشاقة والبلاغة ما فيها.

بلاغةُ المجاز في لفظ ﴿يَوْمِكُمْ﴾:

الإيجازُ في المجاز

أُطلِقَ اليوم في قولِه: ﴿يَوْمِكُمْ﴾ على ما فيه من الأحداث المتنوِّعة على سبيل المجاز المرسل، فبدلًا من تعداد الأهوال الحاصلة منذ البعثِ إلى قضاء الجزاء على الأعمال، وبدلًا من تعداد كلِّ ما نسوه أوجز في اللَّفظ، فعبَّر بالزَّمان الَّذي يحوي جميع هذه الأحداث، فقال: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾[3].

غرضُ إضافة اليوم إلى الضَّمير:

تعليقُ اليوم بالمؤمنين بشارة، وبالكافرين نذارة

إضافَةُ (يَوم) إلَى ضَميرِ المُخاطَبينَ في ﴿يَوْمِكُمْ﴾ باعتِبارِ أنَّ ذَلِكَ اليَومَ ظَرفٌ لأحوالٍ مهمَّة تَتَعَلَّقُ بِهِم، فَإنَّ الإضافَةَ تَكونُ لِأدنَى مُلابَسَةٍ، كما في إضافة اليوم إلى ضمير المؤمنين، في قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: 103][4]، ويحتمل أن تكون الإضافة بمعنى اللّام، فتكون للاختصاص، فيوم القيامة له أهوال يختصُّ بها الكافرون، وألطاف يختصُّ بها المؤمنون، كما قال تعالى في وصف حال المؤمنين في يوم القيامة: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: 103]، فأضاف اليوم إلى الضَّمير العائد إلى المؤمنين، ففي إضافة يوم إلى الضَّمير العائد إلى الكافرين في قولِه: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾ إشعارٌ باختصاصِهم بهذه الأهوال المرعبة، فيوم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 293.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 446.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.

القيامة حين إضافتِه إلى ضمير المؤمنين بأن يقال: يومكم يُقصد به يوم البشارة والثَّواب، وحين إضافتِه إلى ضمير الكافرين يُقصد به يوم النِّذارة والعقاب.

دلالةُ استعمال اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

تنوُّع المقاصد والفوائد بنعت اليوم باسم الإشارة

وُصِفَ اليوم باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾؛ لتمييزِ يومِهم أكمل تمييز، فإنَّه بعد أن عرَّفه بالإضافة، وعيَّنه بقولِه: ﴿يَوْمِكُمْ﴾، وصفه باسم الإشارة؛ لتقريرِ تعيينِه وتشخيصِه لأجلِ تهويلِه، ولئلّا يلتبس عليهم بيومٍ آخر[1]، وليكون في تقرير تشخيص اليوم زيادةٌ في توبيخِهم وتنديمِهم وحسرتِهم، ولتثبيت أنَّه يوم الجزاء على نسيانِهم له.

بلاغةُ العدولِ في عطف الجملة الاسميَّة على الفعليَّة:

تزكُ الكافرين في النّار مؤبَّد

عُطِفت الجملة الاسميَّة: (مَأواكُمُ النّارُ) على الجملة الفعليَّة: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ على طريق العدول في الصّيغة من الفعليَّة إلى الاسميَّة للمبالغة في التَّهديد[2]؛ لِما في الجملة الاسميَّة من معنى الثُّبوت، أي: لِيعلموا أنَّ ترْكَهم في النّار مؤبَّدٌ[3].

نكتة التَّعبير بلفظ المأوى:

النّارُ مأوى مَن نَسِيَ اللهَ، وانشغلَ عن طاعتِه، والجنَّةُ مأوى مَن ذكرَ اللهَ، ولَزِمَ طاعتَهُ

المأوى: هو الموضع الَّذي يسكنه الشَّخص بعد إيوائِه من عملِه؛ ليكون مقرَّ راحتِه وإقامتِه، ويكون فيه عامَّة أوقاته أو كلها أجمع[4]، وعبَّر بالمأوى في قولِه: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ للإشعار بأنَّ حياتَهم الدُّنيا كانت مكان عملِهم، وأنَّ مرجعَهم إلى النّار يأوون إليها، فالمعنى: أنَّكم قد أويتم إلى النّار، فأنتم باقون فيها[5]، فالنّار مأوى من نسي الله، وانشغل عن طاعتِه، والجنَّة مأوى من ذكر الله، ولزم طاعته.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 446.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 446، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 375.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 90.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

دلالة استعمال لفظ ﴿ٱلنَّارُ﴾ دون رديفاتها كجهنَّم:

النّار هو الاسم الَّذي يشمل جميع طبقات العذاب يوم القيامة

لمّا كان الكلام مع عموم الكافرين بجميع طبقاتِهم؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الجاثية: 31]؛ ناسب التَّعبير بالاسم الَّذي يشمل مأواهم في جميع طبقات العذاب، وهو لفظ النّار، فقال تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

دلالةُ عطف جملة النَّفي على الإثبات:

أفاد عطف الجملة المنفيَّة على المثبتة مزيدًا من الوعيد والتَّهديد

لمّا ذكر تعالى أنَّه تاركٌ للكافرين في العذاب، وأنَّ مثواهم النّار؛ دفع ما قد يتوهَّم أنَّه قد ينصرهم ناصرٌ، أو يدفع عنهم دافعٌ، فيستنقذهم من النّار وأهوالِها وشدَّة عذابِها، فناسب أن يعبِّر بأسلوب النَّفي؛ لدفع هذا التَّوهُّم، فقال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، فالمقصود قطْعُ الباب عليهم بأنَّه ليس من ناصرٍ لهم.

دلالة ﴿مِّن﴾:

نفي النّاصرين أبلغُ من نفي القدرة على نصرِهم؛ لأنَّه نفيٌ لحقيقة وجود ناصرٍ أصلًا

لمّا دخل حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ على الاسم النَّكرة ﴿نَّٰصِرِينَ﴾، وكان في سياق النَّفي؛ أفاد النَّصَّ على عموم نفي أيِّ ناصرين للكافرين من النّار، فيشمل نفي الواحد والمجموع، أي: لا ناصرَ واحدًا ولا مجموعةً من النّاصرين لهم يوم يكون مأواهم النّار، كما أنَّ نفْيَ الجمع يفيد بطريق الأولى نفي قدرة الفرد الواحد على نصرِهم، ولم يقل: ولا قدرةَ لأحدٍ على نصرِهم؛ لأنَّ نفي النّاصرين أبلغُ من نفي القدرة على نصرِهم؛ لأنَّه نفيٌ لحقيقة وجود ناصرٍ أصلًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بمفردة ﴿نَّٰصِرِينَ﴾:

لمّا قال تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، والمأوى هو موضع استقرار وسكن؛ ناسب نفي النّاصرين لهم؛ للإشعار برسوخِهم في النّار وشدَّة استقرارِهم فيها، وأنَّهم في النّار في حالِ المغلوبين المقهورين الَّذين لا منقذَ لهم، أي: ما لكم من ناصرين يخلِّصونكم من النّار،

وينقذونكم منها بقهرٍ أو بشفاعةٍ أو بفديةٍ[1] أو بأيِّ طريقة أخرى، ولهذا لم يقل مثلًا: وما لكم من شافعين؛ لأنَّ نفي النّاصرين لهم يشمل نفيَ كلِّ معونةٍ أو إنقاذٍ أو تخليص لهم من النّار، سواء أكان بشفاعة أو غيرِها، فلكلِّ كلمةٍ في القرآن مع صاحبتِها مقام، وعبَّر بصيغة الجمع في نفي النّاصرين؛ للإشعار بشدَّة قهرهم فيها، بمعنى: إن تُصوِّر وجود ناصرٍ لهم؛ فإنَّما يكون بجمع النّاصرين كلِّهم، ولا يقدرون عليه؛ لِعظم الأمر وشدَّته، والحالُ أنَّه ما لهم من ناصرين أصلًا، ولا وجود لهم في الحقيقة.

ليس للكافرين من ناصرين أصلًا يوم القيامة، ولا وجود لهم في الحقيقة

مناسبةُ جمع ثلاثة أنواع من العذاب:

جَمَعَ الله تَعالَى على الكافرين من وجوه العذاب الشَّديد ثلاثة أنواع، فأوَّلها: قطْعُ الرَّحمة عنهم بالكلّيَّة، وترْكُهم في العذاب، وثانيها: أنَّه يصير مأواهم النّار؛ ليستقرّوا فيها، وثالثها: عدم وجود الأعوان والأنصار؛ لينقذوهم من النّار[2]، ويُلحظ في العطف التَّرتُّب بين المعطوفات، فإنَّه إنَّما نفى الأنصار؛ للإيذان ببقائِهم في النّار وقهرِهم فيها، وإنَّما ذكر أنَّ مأواهم النّار؛ لأنَّه مسبَّب عن ترْكِهم وقطع الرَّحمة عنهم.

وجوهُ العذاب المتلاحقة تؤذن بالبقاء فيه

مناسبةُ الفصل في قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ﴾:

جاءت جملة: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها في مقام بيان السَّبب والعلَّة؛ لاجتماع ثلاثة أنواع من العذاب عليهم، فالفصل إمّا لكمال الاتِّصال، أو للاستئناف البيانيِّ؛ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ حول سبب جزائهم.

براعةُ استعمال اسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكُم﴾:

عبَّر بـ﴿ذَٰلِكُم﴾؛ ليشير إلى مجموع أنواع العذاب الثَّلاثة؛

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 446.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 682، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 375، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 166.

لتمييز المشار إليه أكمل تمييز، وجاء بصيغة المفرد؛ للإشعار بأنَّ مجموع أنواع العذاب كلِّها صارت عذابًا واحدًا عليهم، فيكون أشدَّ أذًى عليهم، وعبَّر بصيغة اسم الإشارة - الَّذي هو للبعيد - إشارة إلى عظم كلِّ نوعٍ من أنواع العذاب وشدَّته، فكيف إذا اجتمع عليهم قطْعُ الرَّحمة عنهم، واستقرارهم في النّار، ونفي النّاصرين لهم؟

مجموعُ أنواع العذاب كلِّها صارت عذابًا واحدًا على الكافرين، فيكون أشدَّ أذًى عليهم

نوعُ الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِأَنَّكُمُ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ سببيَّة؛ لبيان علَّة اجتماع العذاب عليهم، وعبَّر بالباء دون اللّام، أي: لم يقل: (ذلكم لأنَّكم)؛ لِما في الباء من رائحة الإلصاق؛ ليكون التَّعبير بالباء فيه إشارة إلى التصاقِهم بالأسباب ولزومهم لها، وعدم انفكاكِهم عنها في الحياة الدُّنيا، والمقصود من ذكر سبب العذاب كشْفُ حالِ الكافرين، وإلزام الحجَّة عليهم يوم القيامة، وفيه كذلك تحذير السّامعين ممَّن يكون في هذه الحياة الدُّنيا من التَّورُّط في الاغترار بها.

تحذيرُ السّامعين من التَّورُّط في الاغترار بالحياة الدُّنيا

غرضُ ذكر ﴿بِأَنَّكُمُ﴾:

علَّق سبب عذابِهم بقولِه: ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ﴾؛ للإيذان بأنَّ السَّبب متعلِّق بذواتِكم وبأفعالِكم، وليس بأفعالِكم فقط، ولهذا لم يقل: (ذلكم باتِّخاذكم)، ففيه زيادة في توبيخِهم وتقريعِهم؛ للإيذان بفساد ذواتِهم وأفعالِهم، كما أنَّ في مجيء المسند جملة فعليَّة تقويةً للحكم وتحقيق له، بمعنى: أنَّه لا سبب سوى أنَّكم أنتم اتَّخذتم آيات الله هزوًا، وغرَّتكم الحياة الدُّنيا.

لا سبب لدخول المستهزئين النّار سوى أنَّهم اتَّخذوا آيات الله هزوًا، وغرَّتهم الحياة الدُّنيا

نكتةُ استعمالِ مفردة الاتِّخاذ:

عبَّر بلفظ الاتِّخاذ في قولِه: ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾؛ للإشعار بقوَّة تمسُّكهم بالاستهزاء بآيات الله، وعدم انفكاكِهم عنه ولزومِهم له وحرصِهم عليه، وعدم نزعِهم عنه؛ ليفيد بلازمِه تكرُّره منهم، ولو قيل: (ذلكم بأنَّكم استهزأتم)؛ لأفاد إثبات استهزائِهم بآيات

أشدُّ أنواعِ الكفر التَّمسُّك بالاستهزاء بآيات الله تعالى والاستمرار عليه

اللّه مطلقًا، وقد يكون مرَّة أو أكثر، والحال هو أنَّهم كانوا مستمرّين على الاستهزاء حريصين عليه.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾:

لمّا كان الاتِّخاذ يكون لِما هو محسوس؛ لأنَّ الأخذ هو حَوْزُ الشَّيءِ وجَبيُهُ وجَمْعُهُ، ويكون بالتَّناول؛ كان إسناد الاتِّخاذ إلى آيات اللّه في قولِه: ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ من باب الاستعارة التَّصريحيَّة؛ إذ شبَّه إعراضهم عن هذه الآيات بالاتِّخاذ لها بجامع التَّمكُّن في الاستهزاء؛ إشعارًا بأنَّهم جعلوها كالمحسوسات في قوَّة اتِّخاذِهم لها هزوًا وحرصِهم على الأمر.

غرضُ إضافة الآيات إلى اسم الجلالة:

في قولِه تعالى: ﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أفادت إضافة الآيات إلى الاسم الجليل تعظيم هذه الآيات وشدَّة قبحِ فعلِهم والتَّعجيب منه، أي: كيف يستهزئون بالآيات، والحال أنَّها آيات اللّه؟

التَّعجيبُ ممَّن يستهزئ بالقرآن، والحالُ أنَّها آيات الله تعالى

نكتة إيقاع ﴿هُزُوًا﴾ مفعولًا ثانيًا:

لمّا أسند الفعل ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾ إلى مفعولين، وهما ﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾، وكان ﴿هُزُوًا﴾ مفعولًا ثانيًا، وكان الفعل (اتَّخَذ) من أفعال التَّصيير والتَّحويل؛ أفاد أنَّهم صيَّروا آيات اللّه هزوًا، وهي ليست كذلك، فيكون اتِّخاذُهم المذكور افتراءً منهم وتكذيبًا للحقيقة؛ لأنَّ آيات اللّه ليست موضعًا للهزوِ.

الاستهزاء بآيات الله تكذيب للحقيقة وافتراء عليها

نكتةُ التَّعبير بالمصدر ﴿هُزُوًا﴾:

لمّا كان الأصل في المفعول الثّاني للفعل - الَّذي يأخذ مفعولين - أن يكون وصفًا مشتقًّا؛ لأنَّ الفعل (اتَّخَذ) يدخل على ما أصله مبتدأ وخبرٌ؛ كان قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ بتقدير اتَّخذتم آيات اللّه مستهزأ بها؛ ليكون المصدر بتقدير اسم المفعول، ونكتة التَّعبير بالمصدر المبالغة في المعنى، أي: إنَّهم جعلوا آيات اللّه مورد

أيُّ استهزاءٍ بآيات الله، ولو مرَّة واحدة؛ فإنَّه يعدُّ هزوًا بها

الهزو ونفس الهزو[1]؛ للإيذان بكثرة استهزائِهم بها واستمرارِهم عليه، كما أنَّ في التَّعبير بالمصدر إشارةً إلى أنَّ أيَّ استهزاءٍ بآيات اللّه، ولو مرَّة واحدة؛ فإنَّه يعدُّ هزوًا.

نكتةُ عطف فعل (غَرَّتكُمُ) على ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾:

الاغترارُ بالحياة الدُّنيا سبب للعذاب يوم القيامة

عطف الفعل (غَرَّتكُمُ) على ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾؛ للإشارة إلى اجتماع السَّبب المحسوس: وهو اتِّخاذ الآيات هزوًا، والسَّبب المعنويِّ: وهو الخداع، ولمّا كانت الجملة الفعليَّة: (غَرَّتكُمُ) معطوفة على ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾؛ أفاد أنَّه أخبر عنهم بخبرين، وتقدير الكلام بأنَّكم اتَّخذتم آيات اللّه هزوًا، وبأنَّكم غرَّتكم الحياة الدُّنيا، فيكون غرورهم بالحياة الدُّنيا داخلًا في بيان سبب عذابِهم.

سببُ إيثار عطف الاغترار على الاستهزاء بآيات الله:

الاستهزاء بآيات الله تعالى أقبح عند الله تعالى من الاغترار بالحياة الدُّنيا، وكلاهما مذموم

لم يقل: ذلكم بأنَّكم غرَّتكم الحياة الدُّنيا، واتَّخذتم آيات اللّه هزوًا؛ لأنَّه لمّا كان الظّاهر في العطف أن يكون المعطوف عليه أشدَّ من المعطوف وأقوى منه؛ لأنَّ المتكلِّم إنَّما يقدِّم الَّذي هو عنده أولى وأهمُّ؛ أفاد أنَّ الاستهزاء بآيات اللّه تعالى أقبحُ عند اللّه تعالى من الاغترار بالحياة الدُّنيا، مع أنَّ كليهما قبيحٌ ومذموم؛ فإنَّ الاستهزاء تكذيب وتشهير وخداع من المستهزئين، والاغترار بالحياة الدُّنيا أمر راجع إلى الفرد؛ لانخداعِه بها وبزينتها وتركِه الإيمان والعمل الصّالح.

بلاغةُ المجاز العقلي في إسناد فعل (غَرَّتكُمُ) إلى ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾:

أسباب الغرور بالحياة الدُّنيا متنوِّعة كثيرة

في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أسند التَّغرير إلى الحياة الدُّنيا على طريق المجاز العقلي؛ لأنَّه لم يكن من الحياة الدُّنيا على التَّحقيق تغرير وخداع، وسبب إسناد تغريرِهم إلى الحياة الدُّنيا هو أنَّ ما فيها كان سببًا لتغريرِهم، فهُم قد اغترّوا بها، فإنَّه لمّا كان

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 447.

غرور الكافرين في الحياة الدُّنيا متنوِّعًا؛ فمنه أنَّهم قاسوا أحوالَ الآخِرَةِ عَلى أحوالِ الدُّنيا، فَظَنّوا أنَّ اللّه لا يُحيي الموتَى، وتَطَرَّقوا مِن ذَلِكَ إلى إنكارِ الجَزاءِ في الآخِرَةِ عَلى ما يُعْمَلُ في الدُّنيا، وغَرَّهُم أيضًا ما كانوا عَلَيهِ مِنَ العِزَّةِ والمَنَعَةِ، فَخالوهُ مُنتَهَى الكَمالِ، فَلَم يُصيخوا إلَى داعي الرُّشْدِ وعِظَةِ النُّصحِ، وأعرَضوا عَنِ الرَّسولِ ﷺ، وعَنِ القُرآنِ المُرشِدِ، ولَولا ذَلِكَ؛ لأقبَلوا عَلى التَّأمُّلِ فِيما دَعَوا إلَيه، فاهتَدَوا، فَسَلِموا مِن عَواقِبِ الكُفرِ، فلمّا كان اغترارُ الكافرين متنوِّعًا بهذه المغرِّرات؛ أسْنَدَ التَّغريرَ إلَى الحَياةِ الدُّنيا عَلى سَبيلِ المَجازِ العَقلِيِّ؛ لأنَّ ذَلِكَ أجْمَعُ لأسبابِ الغُرور[1].

فائدة (ال) في معنى تعريف ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ للعهد الذِّكري، والمقصود الحياة الَّتي عاشوها في الدُّنيا.

نكتةُ وصف ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ بصفة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ دون (الأولى):

زيادةُ تحسير الكافرين يوم القيامة بتذكيرهم بإهمالِهم الإيمان في الحياة الدُّنيا

لمّا كان الخطاب في الآخرة؛ كان مقتضى الظّاهر أن يصف الحياة بالأولى؛ لأنَّها صارت أولى بالنِّسبة للآخرة؛ ليكون لفظ الأولى مقابلًا للفظ الآخرة، لكنَّه قال: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، ولفظ الدُّنيا بمعنى القريبة؛ لأنَّها من الدُّنوِّ بمعنى القرب، ونكتة العدول إلى وصف الحياة بالدُّنيا في قوله: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ زيادة التَّحسير في نفوس المخاطَبين من الكافرين وترسيخ ندامتِهم؛ لِما صدر عنهم من إهمال الاعتبار في الدُّنيا، وقت أن كانت دانية قريبة منهم، فهو تذكير بتلك الأيّام، كأنَّها حاضرة الآن، وهي بالفعل قريبة من حيث شعور المخاطَبين بها.

نكتةُ ذكر ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾:

ذكر الحياة في الآية، فقال: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ دون أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

هَـمُّ الكافرين من هذه الدُّنيا هـو الـحـيـاة فيها، والتَّنعُّم بمعيشتِها، لا ما يتكسَّب فِيها مِـنَ الـخَـيراتِ الَّتي تَـكونُ بِها سَعادَةُ الحَياةِ في الآخِرَةِ

يقال: غرَّتكم الدُّنيا؛ لِما في إسناد الاغترار إلى الحياة من موقع عظيم؛ لأنَّ المقام مقام توبيخ وتقريع للمخاطَبين، ففيه إيذانٌ بأنَّ همَّهم من هذه الدُّنيا هو الحياة فيها، والتَّنعُّم بمعيشتِها، لا ما يتكسَّب فِيها مِنَ الخَيراتِ الَّتي تَكونُ بِها سَعادَةُ الحَياةِ في الآخِرَةِ، أي: غَرَّتْهمُ الحَياةُ الدُّنيا، فَأوهَمَتْهُم أنَّه لا حياة بعدها، فأنكروا الحياة الأخرى، ونسوا لقاء يوم الآخرة[1]، والمرادُ بالحياةِ الأحوال المتنوِّعة، الَّتي تجري عليهم، والحاصلة لهم من التَّكبُّر والتَّفاخر واللَّهو عن آيات الله والعناد والاغترار بما لا ينفع.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾:

الاغـتـرارُ بالحياة الـدُّنـيـا بـاطـل والـرُّكـون إليها مكروه

لمّا كان الغرور هو الإطماعَ في أمرٍ محبوب على نيَّة عدم وقوعِه، أو هو إظهار الأمر المضرِّ في صورة النّافع، وكان يلزم منه الخداع بالمغرور به؛ لأنَّه باطلٌ، كما يلزم منه الغفلة عن ما هو مهمٌّ، فلمّا كان الأمر كذلك؛ استُعير لفظ الغرور بصيغة الفعل ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾ على طريق الاستعارة التَّبعيَّة؛ لبيان أنَّ الحياة الدُّنيا كانت في صورة الأمر المحبوب المرغوب فيه، والحال أنَّ عاقبة الغفلة فيها، والرُّكون إليها مكروه، وأنَّ الاغترارَ بها باطلٌ، وأنَّهم باغترارِهم بالحياة الدُّنيا قد غفلوا عن الآخرة الَّتي هي الأهمُّ، وأنكروها.

نكتةُ التَّعبير بلفظ الغرور:

الاغـتـرارُ اعتقاد النَّـفـع في شيءٍ بـحـسـب ظـاهـر حـالِـه، وهـو في حقيقتِه ضـرٌّ أو مآله ضرٌّ

عبَّر بلفظ ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾؛ للإشعار بعجبِهم بالحياة الدُّنيا وتكبُّرهم وعنادِهم فيها، كما يفيد لفظ الغرور انشغالَهم فيها عن الحياة الأخرى، واختير لفظ ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾ دون أن يقال: أعجبتكم؛ للإشارة إلى أنَّه عجب كاذب باطل؛ لأنَّ الاغترارَ اعتقاد النَّفع في شيءٍ بحسب ظاهر حالِه، وهو في حقيقتِه ضرٌّ، أو مآله ضرٌّ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/ 61.

نوعُ الفاء ودلالتها:

تحتمل الفاء في قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ أن تكون تفريعيَّة بمعنى يتفرَّع على ذكر أسباب العذاب، وينبني عليه أنَّهم لايُخرجون من النّار، ولا هم يستعتبون، كما تحتمل أن تكون الفاء فصيحة؛ لتفصح عن شرطٍ مقدَّر، وتقدير الكلام: إذا كان الأمر كذلك؛ فاليوم لايُخرجون منها، ومناسبة الفاء على الوجهين بيانُ استحقاقِهم عدم الخروج من النّار وعدم استعتابِهم فيها.

استحقاقُ الكافرين عدم الخروج من النّار وعدم استعتابِهم فيها

بديعُ فنِّ التَّصدير بذكر لفظ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾:

لمّا ابتدأ الكلام في خطاب الكافرين يوم القيامة بقولِه: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾؛ ردَّ الفاصلة على مبدئِه، فقال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾، فهو من قبيل ردِّ العجز على الصَّدر بتكرير لفظ اليوم، ومناسبةُ ردِّ الفاصلة على مبدأِ الكلام بيانُ أنَّ اليوم الَّذين ينساهم الله فيه، ويكون فيه مأواهم النّار هو اليوم الَّذي لا يُخرجون فيه من النّار، ولا هم يُستعتبون، ولفظ اليوم، وإن تكرَّر؛ لكنَّه في صدر الكلام عند قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾ إخبار بما يقع يوم القيامة، وفي قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾ إخبار عن اليوم الَّذي يكون بعد إيوائِهم في النّار[1] واستقرارِهم فيها.

في إعادةِ ذِكر اليوم في فاصلة الآية مزيدٌ من النَّعي عليهم والوعيد لهم

نكتةُ نفي الخروج دون إثبات الدُّخول:

لمّا قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾؛ نفى خروجَهم من النّار، وإنَّما نفى خروجهم، ولم يقل: (اليوم يُدخَلون فيها)؛ لأنَّ نفي الخروج من النّار يلزم منه إثبات الدُّخول فيها، كما أنَّ في نفي الخروج إشارةً إلى مقاساتِهم في النّار بعد دخولِهم فيها وقهرِهم فيها، وهو المقصود في الآية.

نفيُ الخروج من النّار يلزم منه إثبات الدُّخول فيها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 114.

بلاغةُ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

من أنواع العذاب للكافرين يوم القيامة الإعراضُ عنهم والاستهانة بهم

لمّا كان قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ من تمام الكلامِ الذي قيل للكافرين يوم القيامة؛ لأنَّ وُقوعَ كَلِمَةِ (اليَومِ) في أثنائِهِ يُعَيِّنُ أنَّهُ مِنَ القِيلِ الَّذِي يُقالُ لَهُم يَومَئِذٍ[1]، فلمّا كان الأمر كذلك، وكان الكلام أوَّلًا بصيغة الخطاب، ثمَّ انتقل إلى صيغة الغيبة؛ كان الكلام على طريق الالتفات والنُّكتة فيه هو الإيذان بالإعراض عن الكافرين، وإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم، بعد توبيخِهم وتأييسِهم، فإنَّ صرفَ بقيَّة الإخبار عنهم إلى مخاطَب آخر ينبئُ ببقيَّة أمرِهم، وأنَّهم صاروا في معرض الإعراض والتَّرك تحقيرٌ لهم، كما أنَّه لمّا كان قولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾ حكاية لما يكون بعد إيوائِهم في النّار؛ أشار إلى نقلهم من مقام الخطابة إلى غيابة النار[2]، وأيضًا في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة إشارة إلى تنوُّع مواقع المساءات الَّتي تأتيهم من كلِّ جهة، فتارةً يواجَهون بما يسيئُهم، وتارةً تجيئهم المساءات من حيث لا يشعرون؛ فهُم إذ يواجهون بهذا التَّقريع لِما كان منهم من الهُزْء بآيات الله، والاغترار بدنياهم، يأتيهم هذا القولُ الَّذي يكون كالصّاعقة الَّتي تنصبُّ على رؤوسِهم[3]، وذهب أبو حفص النَّسفيُّ إلى أنَّ قولَه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾ ليس مُتَّصِلًا بالكلام الأوَّل الَّذي كان مِن خِطاب الملائكة لهم، بل هو ابتداءُ إخبارٍ مِن الله أنَّهم لا يُخرجون مِن النّار أبدًا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 76، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 160، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 256.

(4) أبو حفص النّسفيّ، التيسير في التّفسير: 13/ 366.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

الـكـافـرون لا أحـد يُخرجُهم مـن الـنّـار، ولا يـسـتـطـيـعـون أن يـخـرجـوا بأنفسِهم

قرأ الجمهور: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ بضمِّ الياء وفتح الرّاء بصيغة المبني للمفعول، وقَرَأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ بفتح الياء وضمِّ الرّاء بصيغة المبني للفاعل[1]، وتوجيه القراءتين: أنَّ المعنى على قراءة البناء للمفعول: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ أنَّهُم يَسألونَ مَن يُخرِجُهُم، فلا يُخرِجُهُم أحَدٌ كائنًا من كان، كَما في قَولِهِ تَعالَى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾ [المُؤمنون: 107]، وقَوْلِهِ: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ [غافر: 11]، والمعنى على قراءة البناء للفاعل (لا يَخْرُجونَ) أنَّهم يريدون الخروج، ويفزعون إليه، ولكن لايستطيعون[2]؛ لأنَّه تعالى حكم عليهم بأنَّ مثواهم النّار؛ لقولِه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحَج: 22].

دلالةُ حرف الجرِّ (مِنْ):

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِه: ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ لابتداء الغاية، والمعنى نفي ابتداء خروجِهم من النّار.

نكتةُ عطْفِ عدم الاستعتاب على عدم الخروج:

اجـتـمـعَ عـلى الـكـافـريـن في النّار شتّى أنواع العذاب الحسّيِّ والمعنويِّ

عطف نفي استعتابِ الكافرين على نفي خروجِهم من النّار في قولِه: ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ ليفيد أنَّه يُجمَع عليهم العذاب الحسِّيُّ الجسديُّ والعذاب النَّفسيُّ، وبدأ بالعذاب الحسّيِّ، وانتهى بالعذاب النَّفسيِّ؛ لأنَّ عدم استعتابِهم مرتَّبٌ على عدم خروجِهم من النّار، وليفيد الإبلاغ عن نهاية أمرِهم، فإنَّهم حين لا يُستعتبون ينتهي أمرُهم، فيعلمون أن ليس لهم خروج من النّار، فيكون عذاب عدم استعتابِهم أشدَّ عليهم؛ لأنَّه قطع الأمر عليهم.

---

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/ 401، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 267.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 178، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

غرضُ مجيء المسند جملة فعليَّة:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ جاء المسند ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ جملةً فعليَّةً، ولمّا كان الكلام على معنى أنَّ نهاية أمرِهم هو عدم الاستعتاب؛ جاء المسند جملة فعليَّة؛ لتقوية الحكم وتحقيقِه، بمعنى: لا يُطلب منهم استعتاب، ولا يكون منهم أبدًا.

دلالةُ السّين والتّاء في قوله: ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾:

السّين والتّاء في قولِه: ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ لِلطَّلب[1]، بمعنى: لا يُطلب منهم أن يُعتِبوا ربَّهم سبحانه، أي: يزيلوا عتبَهُ ﷻ، وهو كناية عن طلبِ إرضائه تعالى، أي: لا يُطلَب منهم إرضاؤه ﷻ لفوات أوانِه[2]، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ السّين والتّاء للمبالغة[3]، أي: مثل يجيب ويستجيب؛ لتفيد المبالغة في نفي استعتابِهم وإزالة شكواهم.

يومُ القيامةِ هو يوم فوات أوان الاستعتاب والاسترضاء

نكتةُ بناء فعل ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ للمفعول:

عبَّر بصيغة المبني للمفعول في قولِه: ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّه لا يَطلبُ أيُّ أحد منهم أن يرضوا ربَّهم، ولا يزيل أيُّ أحدٍ عتبَهم؛ لفوات أوان الإرضاء، ففي بناء الفعل للمفعول إيجازٌ من ناحية، ودعوة للانشغال بذات الفعل عن فاعله من ناحية أخرى.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

قد يقال جاء في هذه الآية وفي آيات أخرى نفيُ استعتابِ الكافرين، فقال تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾، وأخبر في آية أخرى أنَّهم غير مُعْتَبين، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [فصلت: 24]، فما توجيه اللَّفظين على القول بأنَّ السّين والتّاء في ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ للطَّلب، والمقام والوقت واحد، وهو عند

الكافرون يوم القيامة لا يُرضون في طلبِهم، وليسوا براضين عن حالِهم

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 293، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 110، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 447.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 160.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 376.

إيوائِهم في النّار يوم القيامة؟ والجواب: أن يقال: أمّا كونهم غيرَ مُسْتَعْتِبين؛ فمعناه أنَّ غضبَهم لا يُزال، أي: لا يقال لهم: ارضوا ربَّكم لفوات الأوان، وأمّا كونُهم غيرَ مُعْتَبين؛ فمعناه: أنَّهم غيرُ راضين بما هم فيه، فشُبِّهَتْ حالُهم بحالِ قومٍ جُني عليهم، فهُم عاتِبون على الجاني، غيرُ راضين عنه بما هم فيه، فإن يَسْتَعتبوا اللّهً، أي: يَسألوه إزالة ما هم فيه؛ فما هم مِن المجابين[1].

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 9/ 56.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"